المفردة الحادية عشر:

المصطلح الصوفي:

مقدمة:

يرتبط الحديث عن التجربة الصوفية أو الممارسة العرفانية الذوقية " بتحديد المصطلحات التي تصف ما يجده الصوفي السالك في حضرته اللدنية، وسفره الروحاني، وما يعيشه من مجاهدات ورياضات قلبية، وما يسلكه من مدارج على مستوى المقامات والأحوال. ولا يمكن للسالك المريد أيضا أن يسافر في تعرجاه الصوفي من أجل امتلاك حقيقة الإنسان الكامل أو الوصول إلى حقيقة القطب إلا بمعرفة المفاهيم والمصطلحات الصوفية التي قد ترشده وتهديه في سفره الوجداني وترحاله الروحاني، والتي ستساعده بلا ريب على امتلاك قبس المعرفة الإشراقية، والسيطرة على مفاتيح الحضرة اللدنية، والقدرة على استكناه التجليات الربانية، والارتشاف من معين الإشراق الإلهي والكشف النوراني"[1].

حيث يعد فه المصطلح واستيعابه وتمثله " خطوة أساسية ومرحلة عملية مهمة لفهم التجربة الصوفية وتفسيرها. ولكن هذا الاصطلاح العرفاني ليس مثل غيره من الاصطلاحات العلمية والفنية المقننة بدلالات حرفية معينة، وإنما هو اصطلاح زئبقي تتغير دلالاته المفهومية والتصورية حسب كل صوفي ومقام سلوكي وتجربة عرفانية. وبالتالي، تدخل الكتابة الصوفية والاصطلاحية ضمن عالم مجرد مغلف بالمجاز، ومسيج بنسق مكثف من الإشارات والعلامات الرمزية. كما تتخذ هذه الكتابة أبعادا سيميائية إيحائية تنزاح عن الدلالات اللغوية والمعجمية الحرفية"[2].

ونتيجة لهذه الضرورة الملحة ظهرت عدة كتب ومعاجم خاصة بالمصطلحات الصوفية تسهل على القارئ العادي أو السالك المريد معاني الممارسة الصوفية، تعددت الاصطلاحات[3] ورتبت إما بطريقة ألفبائية و إما بحسب الموضوعات وإما بحسب المقامات والأحوال.

أولا/ مفهوم المصطلح الصوفي:

يعرف جميل حمداوي المصطلح الصوفي بأنه " عبارة عن مفهوم تصوري يعكس مضمون التجربة الذوقية الوجدانية التي يعيشها المريد السالك في رحلته الروحانية من أجل تحقيق الوصال أو اللقاء الرباني عبر محطات ثلاث، وهي: التحلية والتخلية والوصال"[4].

ويقسمه " إلى دال ومدلول ومرجع، فالدال عبارة عن فونيمات صوتية، أما المدلول فهو المعنى الذي تعنيه هذه الأصوات. وإذا انتقلنا إلى المرجع فهو الموضوع الحسي الذي تحيل عليه الكلمات.

ولكن الكلمة الصوفية تتجاوز المعنى الظاهري الأول إلى المعنى الكنائي أو الانزياحي. فكلمة "الخمرة " في المفهوم الصوفي تتعدى الدلالة الحرفية القدحية في الخطاب الديني الفقهي التي تتمثل في السكر والخبث والرجس لتأخذ دلالة إيجابية رمزية تحيل على الصفاء والانتشاء الرباني والامتزاج الوجداني والاتحاد بين الذاتين: العاشقة والمعشوقة داخل بوتقة عرفانية واحدة"[5] .

وهو أيضا عند عاطف جودت نصر تلك الألفاظ التي :" جرت على ألسنة الصوفية من باب التواطؤ..."[6]، ويعني هذا أن " العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اصطلاحية تعود إلى نوع الصوفي وطبيعة الممارسة الذوقية وصنف الرحلة اللدنية الحدسية التي تنقطع فيها الوساطات وتكون العلاقة فيها مباشرة بين المتصوف وربه. ومن ثم، تصبح مصطلحات التصوف علامات سيميولوجية وإشارات رمزية دالة وموحية لا يفهمها إلا السالكون المريدون والأقطاب الشيوخ والدارسون المتخصصون الذين مارسوا ومازالوا يمارسون التصوف عن قرب أو بعد"[7]. فالألفاظ والمصطلحات الصوفية مناط فهمها واستعابها الذوق والقلب والوجدان لا عن طريق العقل أو الاستدلال أو البرهان أو عن طريق التجريد التأملي. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ حسن الشرقاوي:" إن هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف، ولا يتأتى ذلك إلا لسالك يداوم على مخالفة الأهواء، وتجنب الآثام، والبعد عن الشهوات، وإخلاص العبادات، والسير في طريق الله (...) حتى تتكشف لهذا المريد الصادق غوامضها، وتتجلى له معانيها.."[8]

ومن هنا، فالمصطلح الصوفي الذي يدرك بالذوق والوجدان يختص بخاصة الخاصة لا بعامة الناس لأنه يتجاوز مدركاتهم ومستوى عقولهم وتفكيرهم القلبي والعقلي.

ويجعل الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر محقق كتاب "اصطلاحات الصوفية" للقاشاني للمصطلح الصوفي ثلاثة جوانب أساسية :" أولها الجانب العملي وهو الطريق، وثانيها الجانب النفسي أو الشعوري أو الوجداني أو العاطفي وهو التجربة، وثالثها الجانب النظري أو الفكري أو التعبيري وهو المذهب"[9]، ويعني هذا " أن المصطلحات الصوفية تصف لنا بشكل بارز ثلاثة موضوعات أسياسة في مجال التصوف ألا وهي: الطريق، والتجربة، والمذهب. فالطريق يحيل على الرحلة والانتقال من عالم الحس والظاهر المادي المقترن بالدنيا إلى عالم التجريد النوراني والوصال الأخروي. في حين تشير التجربة إلى الممارسة الصوفية في شكل مجاهدات ورياضات ومقامات وأحوال. أما المذهب فيشير إلى التوجه النظري وتأسيس النسق المعرفي والنظري العرفاني الذي يتكون من المريد، والشيخ/ القطب، والدروس التي تكمن في مجموعة من المقامات والأحوال يتدرج فيها السالك حسب قدراته الاكتسابية وما يسبغ عليه الله من فيوضات أخلاقية ومواهب ربانية "[10].

ثانيا/ الكتابات في المصطلح الصوفي:

ظهرت مجموعة من الكتابات المعجمية في مجال الاصطلاح الصوفي تقوم بتفكيك المصطلحات وشرحها عرفانيا ورمزيا واستقراء دلالاتها السياقية داخل الممارسات الصوفية والتجارب الذوقية. كما ظهرت كتابات نظرية حول الاصطلاح الصوفي تحاول دراسة المصطلح دراسة نقدية وتأويلية وتفكيكية، الهدف منها دراسة منابع المصطلح الصوفي وطبيعته ومفهومه ومرجعياته ومستوياته التواصلية.

ومن المعاجم الصوفية نستحضر كتاب"اصطلاحات الصوفية" لعبد الرزاق القاشاني[11]،و" معجم الكلمات الصوفية" لأحمد النقشبندي الخالدي[12]،، و" المعجم الصوفي" للدكتورة سعاد الحكيم[13] وكتاب" معجم ألفاظ الصوفية" لحسن الشرقاوي،، وكتاب" المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل" لمحمد المصطفى عزام[14]، وكتاب ماسينيون "Massignon بحث حول جذورالمعجم التقني للتصوف الإسلامي.essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane/[15]

ويلاحظ أن هناك " كتبا تفردت بالمعجم الصوفي وتخصصت فيه بشكل محدد ومستقل، وفي المقابل هناك كتب تناولت المصطلح الصوفي مع باقي المصطلحات المعرفية الأخرى التي تنتمي إلى الفلسفة واللغة والشريعة والآداب والعلوم والفنون والحرف الأخرى ككتاب "كشاف اصطلاحات الفنون" لمحمد علي التهانوي، و"المصطلح الفلسفي عند العرب" للدكتور عبد الأمير الأعسم، و"المعجم الفلسفي" لجميل صليبا..."[16]

ثالثا/ منابع الكتابة الاصطلاحية الصوفية:

قدم الدكتور جميل حمداوي في مقاله حول المصطلح الصوفي تصنيفا بديعا مفصلا لمنابع الكتابة الصوفية وفرّع حقولها الدلالية والمعجمية، حيث عددها بتعدد جوانب الحياة العرفانية التي تتمثل في الطريق والارتحال، والممارسة الوجدانية، والمذهب، والمقامات والأحوال. ويتمثل ذلك فيما يلي[17]:

" فمن المصطلحات التي تنتمي إلى حقل الطريق نذكر: السفر، والرحلة، والحج، والسلوك، و السالك، والمقامات، والأحوال، والمجاهدة، والوصول، والواصل، والغاية،و المعراج، والسائر...

ومن المصطلحات التي تحيل على حقل التجربة الصوفية نلفي: التجربة، والرؤيا، و الكشف، والمشاهدة، والوارد، والنقر، والهواجم، والهواجس....

ومن المصطلحات الدالة على حقل المذهب: الإحسان، والإرادة، والحضرة، والفيض، و لجذبة، و الولاية، وحقيقة الحقائق، وأمهات السماء، والشيخ، و المريد، والقطب، والولاية، والإنسان الكامل، والغوث، وقطب الأقطاب، الطريقة...

أما المصطلحات التي تنتمي إلى حقل المقامات فنذكر: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضى.

ومن مصطلحات الأحوال نجد: التأمل، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، والتعين.

أما عن مصادر المصطلح الصوفي ومرجعياته الاشتقاقية والمناصية فهي عديدة تتمثل: في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلوم اللغة وعلوم الشريعة وعلم الكلام والفلسفة والآداب والعلوم التجريبية والعلوم الحقة.

فمن المصطلحات التي نهلها المتصوفة من القرآن الكريم نذكر: الذكر، والسر، والقلب، والتجلي، والاستمتاع، والاستقامة، والاستواء، والاصطناع، والاصطفاء، والإخلاص، والرياء، والرضى، والخلق، والعلم، والنفس المطمئنة، والسكينة، والتوبة، والدعوة، واليقين، والله، والنور، والحق...

ومن المصطلحات التي أخذت من الحديث النبوي الشريف نستحضر:الجلال، والخضر، والخوف، وأهل الذكر، والرداء، والأبدال، والأوتاد، والغوث، والنجباء، والنقباء...

ومن المفاهيم الصوفية التي استلهمت من النحو: الغياب، والحضور، والمعرفة، والاسم، والحال، والمعرفة، والرسم، والعلة، والصفة، والشاهد، والإشارة، والواحد، والجمع، والوصل والفصل...

ومن المصطلحات التي أخذت من علم الكلام كما لدى المعتزلة والأشاعرة والمرجئة والماتريدية نذكر: التوحيد، والعقل، والعدل، والعرض، والجوهر، والذات، والصورة، والتنزيه، والقديم، والثبوت، والوجود، والأزل،...

كما استفاد المعجم الصوفي من بعض المصطلحات الدخيلة منذ العصر الجاهلي كالأفلاك والأزياج والمهرجان والدستور والترياق والديوان...

ومن المصطلحات الصوفية التي تنتمي إلى المرجعية الفقهية: الصلاة والوضوء والطهارة والزكاة والحج...

ومن المصطلحات التي أخذت من المرجعية الفلسفية نذكر: العقل والنفس والحس والهيولى والعقل الأول والفيض والنفس الكلية والنظر...

ومن مصطلحات المرجعية الكيميائية نستحضر: الكيمياء، وكيمياء السعادة، وكيمياءالعوام، وكيمياء الخواص، والإكسير، والعقاقير، والتدابير...

ولا ننسى كذلك المرجعية الفلكية وألفاظ علم التنجيم ككوكب الصبح، وكون الفطور غير مشتت للشمل، واللوامع، وليلة القدر...بله عن ألفاظ الطبيعة والأدب والعروض(الأوتاد) (انتهى الاقتباس)

رابعا/ طبيعة المصطلح الصوفي:

يكشف الدكتور جميل حمداوي أنّ المصطلح الصوفي له وجهان: وجه ظاهري سطحي يدركه عامة الناس عن طريق النص أو النظر العقلي، ووجه باطني لايدركه سوى الخاصة من علماء الباطن والسلوك الذوقي اعتمادا على العرفان والقلب والحدس. " وينتج عن هذا أن للمصطلح الصوفي دلالتين: دلالة حرفية لغوية ظاهرية، ودلالة إيحائية رمزية قائمة على الانزياح والمجاز، وتستوجب هذه الدلالة الرمزية استخدام التأويل لشرح المعاني وتفكيكها.

زد على ذلك أن الصوفي يستخدم في بوحه وكشفه وكتاباته الوجدانية وتجلياته وشطحاته وكراماته مجموعة من الخطابات التعبيرية منها: الكتابة الشعرية، و الكتابة النثرية، والكتابة المقطعية الشذرية ، والكتابة السردية المناقبية، والكتابة الفلسفية ، وقد يختار كذلك ضمن وسائل الكتابة إما الكتابة الدينية وإما الكتابة الجدلية "[18]. والتي يفضل فيها ويختار أسلوب التلميح والإضمار والإبهام والإغراب والغموض والإيجاز والإشارات بدلا من أسلوب الوضوح والبيان والإظهار. لذلك يجد الصوفي صعوبة كبيرة في إيصال الرسالة إلى المتلقي البسيط، ويفشل في عملية التبليغ وتوصيل التجربة العرفانية الذوقية إلى عموم الناس بسبب عجز اللغة التواصلية التي تمتاز بالمفارقة التعبيرية الناتجة عن قلة الألفاظ وكثرة المعاني. لذلك يلتجئ المتصوف في كتابته التعبيرية إلى الانزياح اللغوي والخرق الشاعري واستخدام اللغة الرمزية المجردة والإكثار من الاشتقاق اللغوي وتوظيف طاقة التوليد.

خامسا/ مشاكل المصطلح الصوفي:

ونظرا لتعدد التجارب الصوفية الفردية والجماعية، واختلاف المصطلح من متصوف على آخر، فقد نتج عن هذا الاختلاف والتعدد والتغاير مشكلات في فهم المصطلح الصوفي وتأويله، يمكن إيجازها فيما يلي[19]:

- أن الانزياح يغلب كثيرا على المصطلح الصوفي؛ مما يجعل المعجم الصوفي يعاني من التسيب والمرونة الموسعة في الاصطلاح والتأويل.

- كما يعود هذا المشكل إلى اللغة الإنسانية في تعبيرها عما هو وجداني وحدسي وفني فتجد نفسها قاصرة وعاجزة عن التبليغ والتعبير وتحقيق الوظيفة التواصلية. لذا يعمد المتصوف إلى استخدام لغة الرموز والإشارات والعلامات. وهذا ما يجعل الخطاب الصوفي خطابا غير منجز وغير كامل بسبب الإضمار والحذف والإيجاز والتكثيف الدلالي. وكل هذا يستوجب من الباحث الدارس أو المتلقي الواعي التسلح بتقنية التأويل والتفكيك السيميائي أو اللجوء إلى القراءة الهرمونيطيقية في التفاعل مع النص العرفاني.
- ومن المشاكل التي تترتب عن توسيع نطاق المصطلح الصوفي خاصية التجريد، واختلاف المصطلح من حقل إلى آخر، وحمله دلالات جديدة بسبب احتكاكه بالمؤثرات الذاتية الداخلية أو الخارجية..

ويمكن إجمال مشكلات المصطلح الصوفي في تعدد المعنى واستعمال اللفظ المشترك واختلاف التجارب الصوفية العامة والخاصة واختلاف المفهوم من صوفي إلى آخر.

خاتمة:

يتبين لنا في الأخير أن التمكن من المصطلح الصوفي مسلك ضروري وخطوة أساسية لفهم التجربة العرفانية ومعايشة الرحلة الوجدانية، ويتم ذلك بالاستعانة بالقلب والوجدان، فالمصطلح الصوفي ينقسم إلى ظاهر له دلالة سطحية حرفية، وباطن يتسم بلغة انزياحية رمزية مجردة.

وأن المصطلح الصوفي مازال في حاجة إلى دراسة معمقة في أبعادها اللغوية والاشتقاقية على المستويين: الوصفي التزامني والتاريخي. وما أشد حاجتنا أيضا إلى معاجم صوفية مبسطة! معاجم مرتبة ومنظمة بدقة تصنف المادة الصوفية حسب الرحلة والسلوك والمذهب والمقامات والأحوال دون الانسياق وراء التجريد الفلسفي والتنظير الصوفي الخيالي المجنح كما يقول الدكتور جميل حمداوي.. فلابد من التبسيط في التبويب والتدقيق في التعاريف والتكثيف في الشروح وتسهيلها بالشواهد وتدعيمها بالأمثلة المحددة بالسياقات السلوكية القريبة من التجريب الحسي ليفهمها الإنسان العادي والسالك المريد والباحث المتمرس